«زود حبة كمان».. عن العملات القديمة فى مصر

إذا فَسُدَ ملح النقد فَسُدَتِ الذّائقة العامّة واختلط الحابل بالنابل والغثُّ بالسمين والإبداع بنقيضه

الريال بوطاقة والريال أبو مدفع أسماء مصرية لنقود أجنبية إسبانية وألمانية جرى تداولها فى مصر

ترتبط الكثير من الأمثال والألفاظ التى نتداولها، بحقب زمنية قديمة، وسياقات ثقافية متشعبة، وعلاقات اقتصادية واجتماعية اندثرت مع الأيام، مما يجعلها تشبه المتحجرات الجيولوجية، تحتفظ فى نواتها بماضٍ سحيق، يتكشف لنا مع الملاحظة والتدقيق.

ومن بين هذه المتحجرات اللغوية التى تكشف عن نمط اقتصادي، كان شائعًا لقرون فى مصر، وهو استخدام كلمة «حبة» فى صيغ، مثل: أن يقول المشترى للبائع «زود حبة كمان»، أو «نقص حبة»، أو المثل القائل «زود حبة تزيد محبة». مما يطرح التساؤل حول علاقة «الحبة» بالمكيال والميزان، وهل كانت الحبة معيارًا للوزن؟

هذا ما تكشفه كتب التراث، وربما كان أمرًا لا يسترعى الانتباه، منذ قرنين من الزمان، ولا يستدعى هذا التساؤل من الأساس، عندما كانت الحبوب بالفعل هى المعيار الذى توزن به الحبوب، إذ كان يقدر أهل الاختصاص وزن هذه العملات التى تختلف تسمياتها، عبر العصور، وكذلك أوزانها.

الحبة الخروب

يكشف المقريزى فى كتابه «الرسائل» عن هذه العلاقة بين النقود والحبوب، إذ أنها كانت وسيلة وزن كل عملة من العملات، فيجرى معايرة الوزن من خلال الحبة، فعلى سبيل المثال: كان وزن القيراط ٣ حبات من الشعير متوسطة الحجم، والمثقال ١٠٠ حبة من الخردل البرى متوسط الحجم، وكان يختلف وزن ونوع الحبوب التى يجرى المعايرة بها، فالدرهم كان يساوى ٥٠ حبة، والدينار ٧٢ حبة، وفى بعض الأوقات كانت تجرى المساواة بين الدرهم والدينار، فى عدد الحبوب، مع اختلاف مادة الصنع، الفضة للدراهم، والذهب للفضة، وفى مصر بعهد السيوطى كان وزن الدرهم ١٨ حبة خروب، وتزن حبة الخروب ٣ حبات من القمح، بينما كان وزن المثقال ٢٤ حبة من الخروب.

وعبر تاريخ مصر، تنوعت العملات التى استخدمها المصريون، التى تعرفنا دراستها بجزء من التاريخ، ووقائعه، وأحداثه المختلفة، وأسماء الحكام، وألقابهم، ومدى تقدم وتدهور الاقتصاد فى عهدهم. وقد عرف المصريون عملات عدة، عبر تاريخيهم، من الدينار الذى يرتبط بالعملات الذهبية، والدرهم المرتبط بالعملات المصنوعة من الفضة، والبرونز والنحاس فى عصر الكساد الاقتصادى المملوكي.

زر المحبوب والفندقلى أسماء للعملات الذهبية التى ميزت مصر العثمانية

النقود الذهبية

لم تعرف مصر – طبقًا لما ينقله المقريزى – طوال تاريخيها حتى وصول صلاح الدين الأيوبي، عملة من العملات يجرى تداولها بشكل رسمي، سوى العملات الذهبية فقط. أول عملة ذهبية خاصة بمصر فى عهدها الإسلامى عرفت باسم: «الدينار الأحمدي»: نسبة إلى أحمد بن طولون، الذى سك عملة باسمه بعد أن استقل بحكم مصر عن الدولة العباسية عام ٢٥٤هـ، ٨٦٨م.

وهناك «الدينار المعزي» نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمي، الذى سك دنانير ذهبية باسمه عام ٣٨٥هـ، ٩٦٩م.

وفى عهد الناصر فرج خرج «الدينار الناصري» نسبة إلى الناصر فرج بن السلطان برقوق، أول مملوك شركسى يصعد إلى الحكم فى مصر، وسكت عام ٨٠٨هـ، ١٤٠٥م.

وفى العهد العثمانى ظهرت عملة ذهبية ظلت مستخدمة حتى وصول الحملة الفرنسية «الفندقلي/ الفندقي»، أو «السكين» نسبة إلى البندقية.

واستخدمت أيضًا محليًا فى هذا العصر، عملة تسمى «زر محبوب» وهى عملة ذهبية أيضًا، وكلمة «زر» فارسية تعنى الذهب أى ذهب المحبوب، وكانت متداولة إلى جانب الفندقلي، لكن يختلفان فى الوزن والقيمة، وكان يطلق على النصف منها اسم «نصفية»، والربع «ربعية»، أي: نصف زر محبوب، وربع زر محبوب.

النقود الفضية

وعرفت مصر أيضًا فى وقت متأخر نسبيًا، فى عهد صلاح الدين الأيوبي، الدراهم، أي: العملات المصنوعة من الفضة والبرونز؛ لأنه قبل قدوم صلاح الدين الأيوبى ٥٦٧هـ ١١٧١م – كما ذكرنا سابقًا – كانت العملات الذهبية وحدها، هى العملة القانونية والمشروعة فى مصر. وحملت هذه الدراهم أسماء الملوك والأمراء الذى حكموا مصر.

«الدرهم الناصري» وضُرب عام ٥٨٣هـ، ١١٨٧م نسبة إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي، كأول درهم عرفته مصر بشكل رسمي.

«الدرهم الكاملي» إلى نسبة إلى الكامل ناصر الدين ٦٢٢هـ، ١٢٢٥م.

«الدرهم الظاهري» نسبة إلى الظاهر بيبرس ٦٥٨هـ، ١٢٦٠م.

«الدرهم المحمودي» نسبة إلى الأمير محمود بن على سنة ٧٨١هـ، ١٣٧٩م.

«الدرهم المؤيدي» وهو آخر الدراهم التى سكت فى مصر عام ٨١٨هـ، ١٤١٥م.

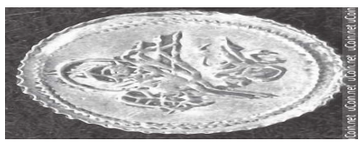

الفلوس عملة اعتبرها المقريزى عارًا على المصريين وتمنى زوال تداولها

الأسود، وهو عملة فارسية عرفت باسم البغلى – كما ينقل المقريزى – نسبة لشخص كان يسكها، يطلق عليه العامّة فى بلاد فارس اسم رأس البغل. أما اسم الأسود فبسبب الشكل الذى تكون عليه هذه العملة، مع تقادم العهد، فتتحول إلى اللون الأسود؛ بسبب التفاعلات الكيميائية مع الجو، وتمييزًا لها أيضًا عن الدرهم الطبرى الأبيض.

«الدرهم الطبري» الذى يستمد اسمه من طبرية.

«الدراهم اليمنية» القادمة من اليمن، والتى تستعمل فى التجارة معها.

«الدراهم المغربية» القادم من بلاد المغرب.

«القرش الإسباني» هو أحدث فى الاستخدام من العملات السابقة، وكثر استعماله فى مصر قبيل قدوم الحملة الفرنسية.

«التالر الألماني» وتعرف باسم الرسدال أو الريال، وكان شديد الانتشار فى مصر كذلك، إبان الحملة الفرنسية، وكان يساوى قيمة القرش الإسباني، ويجرى الاستبدال بينهما بسهولة، وإن كانت قيمة التالر الألمانى تكون عادة أعلى قليلًا؛ بسبب دقة صنعه، ووزنه الأكبر من القرش الإسباني.

ومن المهم هنا أن المصريين كان يطلقون على هاتين العملتين اسم «الريال» وهى تحريف لكملة الرسدال، ويطلقون على كل منهما اسمًا خاصًا يميزه عن الآخر.

«الريال أبو مدفع» وهو الاسم الذى أطلقه المصريون على القرش الإسباني؛ لأن على أحد وجهيه أعمد تشبه المدافع.

«الريال بوطاقة» ويطلق على التالر العملة الألمانية، ويعنى الريال المرسوم عليه طاقة (التى تعنى نافذة أو شباك)؛ لأن على أحد وجهى العملة عقاب مقسوم على أربعة أجزاء، تشبه المشربيات المصرية والطاقات.

«القروش» وهى عملة مصرية من الفضة، سكها على بك الكبير، لم يكتب لها الشيوع، وكانت لها فئات متعددة تساوى ٢٠ و ٤٠ و٨٠ و١٠٠ مديني، وألغيت وسحبت من الأسواق بعد هزيمة على بك الكبير، وأعادت الحملة الفرنسية سكها عام ١٧٩٨م، ١٢١٣هـ.

واختلف وزن كل نوع من هذه الدراهم التى جرى تداولها فى مصر، منذ الفتح الإسلامي، فعلى سبيل المثال: الدراهم السوداء التى ألغى صلاح الدين الأيوبى التعامل بها، كانت شديدة الثقل، وذات معيار عال، ثم سك الكاملى نوعًا من الدراهم تحت اسم «أوراق» التى يُعتقد أن عملة «المديني» – التى ظلت تستخدم فى مصر حتى قدوم الحملة الفرنسية – قسم منها. وكانت هذه العملة (المديني) خفيفة جدًا، لدرجة أنه يمكن أن يجمع الألف منها فى قاع قرطاس، وأى نفخة هواء قادرة على أن تبعثرها. وينقل علماء الحملة الفرنسية فى كتاب وصف أن أصل تسمية مديني يرتبط بدراهم المؤيدي، التى حرفتها العامة تخفيفًا إلى الميدى أو المديني.

النقود النحاسية

لم تكن العملات المصنوعة من النحاس فى مصر، ذات قيمة عالية، ولم يكن المصريون يفضلونها، وقد عبّر المقريزى عن ضيقه الشديد من استخدام هذا المعدن كعملة فى مصر، وذكر فى رسالته شعوره بالعار لمجرد تدوين ذلك الأمر، فيقول فى رسالته عن النقود النحاسية وضيقه منها:

«وأما الفلوس، فإنه لم تزل سنة الله فى خلقه وعادته المستمرة، منذ كان الملك إلى أن حدثت الحوادث والمحن بمصر، منذ سنة ست وثمانمائة، فى جهات الأرض كلها، عند كل أمة من الأمم،... أن التى تكون إثمانا للمبيعات، وقيم الأعمال، إنما هى الذهب والفضة فقط. ولا يعلم فى خبر صحيح ولا سقيم عند أمة من الأمم، ولا طائفة من طوائف البشر، أنهم اتخذوا أبدًا فى قديم الزمان ولا حديثه، نقدًا غيرهما،... وتالله، إن هذا الشيء يستحيى من ذكره؛ لما فيه من عكس الحقائق، إلا أن الناس لطول تمرنهم عليه ألفوه، إذ هم أبناء العوائد، وإلا فهو فى غاية القبح، والمرجو أن يزيل الله عن بلاد مصر هذا العار، بحسن السفارة الكريمة».

وبدأ ظهور العملة المصنوعة من النحاس، إبان الظاهر برقوق المملوكى ٧٨١هـ ١٣٧٩م، وكانت تعرف العملة المصنوعة من النحاس باسم «الفلوس» تلك اللفظة التى ستصبح علمًا فيما بعد على أى نوع من أنواع النقود فى مصر حتى الآن، سواء التى كانت مصنوعة من الذهب، أو الفضة، أو من الورق فى أيامنا هذه.

د. عبدالكريم الحجراوي